ما أكثر ما يُقدم العبد محاب نفسه على محاب الله، فيعذبه الله بمحبوبه، ومن أحب شيئًا لغير الله محبةً تستعبد قلبه، أو زاحم بها محبة الله وطاعته، عُذِّب بمحبوبه.

والأصل النبوي: تقديم محبة الله ورسوله عمَّا سواهما، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:
«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النارِ».

وشرح القسطلاني «مما سواهما» بأنه يشمل النفس والولد والوالد والأهل والمال وكل شيء، وأن ثمرة ذلك استلذاذ الطاعات واحتمال المشقات في الدين.

فالحديث يقرر درجتين:
أن تكون محبة الله ورسوله مقدَّمة على جميع المحاب.
أن تكون محبة المخلوقين تابعة لذلك: «لا يحبّه إلا لله».

محبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله جاء في شرح قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ):
«يجب على المسلم أن يحب رسول الله ﷺ أكثر من محبته لنفسه وأهله وماله والناس أجمعين...
ويجب أن يُعلم أن هذا الحب ـــ حب الرسول ﷺ ـــ يكون تابعًا لحب الله، وليس حبًّا مع الله؛ بل هو

يتبع محبة الله جل وعلا... وإنما يحب الرسول لأن الله جل وعلا يحبه، فأنت تحب محبوبات حبيبك، فهي مكملة لمحبة الله جل وعلا ومتممة لها».

وعليه فقولنا: «محبة الله ورسوله» لا يعني التسوية بينهما في محبة العبادة؛ بل محبة الرسول ﷺ ناشئة عن محبة الله وطاعته.

والمحبة الشركية والمحبة التابعة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ بُيِّن أن المحبة الممنوعة هي المحبة الخاصة المتضمنة للذل والتعظيم والعبادة؛ وأن الذين اتخذوا الأنداد يتبرأ بعضهم من بعض عند رؤية العذاب، وتنقلب محبتهم حسرة.

وفي المقابل:
«حب عباد الله الصالحين متعيّن، ولكن... عباد الله الصالحين يُحبّون لله، لا يُحبّون معه؛ فمعنى محبتهم أنها مكملة لمحبة الله جل وعلا».

وهنا نص جامع عند ابن تيمية وهو السبب لكتابة هذا المقال، ووجدت هذا النص حاضرٌ في تراث طلابه ابن القيم وابن كثير رحمهم الله أجمعين كما سنرى في المقال..

قال ابن تيمية:
«واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير الله فلا بد أن يضرّه محبوبه، ويكون ذلك سببًا لعذابه».

ثم فسّر ذلك بقوله:

«فمن أحب شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وُجد أو فُقد؛ فإن فُقد عُذِّب بالفراق وتألم، وإن وُجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، فصارت المخلوقات وبالًا عليه، إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال للعبد».

فالعذاب يقع على حالين:
إن فُقد المحبوب: عذاب الفراق والحسرة.

وإن بقي: الخوف عليه، وخدمته، وما يورثه التعلق به من الألم.

أما ما أُحبَّ «لله وفي الله» فليس من هذا الباب.

وقد يجتمع العذاب مع فرط التعلق، وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية:

«إن تعلّق العبد بما سوى الله مضرّة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله... وإن أحب شيئًا حبًّا تامًّا... فلا بد أن يسأمه أو يفارقه».
واستشهد بالمعنى المأثور:
«أحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

فالافتراق الملازم للمخلوقات يجعل المحبة المستعبدة للقلب منشأً للعذاب، بخلاف محبة الله التي لا يلحقها فناء المحبوب أو العجز عنه.

وقد يُعذَّب الإنسان بعين محبوبه، وهنا يضرب ابن تيمية مثال المال؛ فالذي تعلّق بكنزه ومنعه حق الله يُمثَّل له كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يقول:

«أنا كنزك، أنا مالك» .
ثم قرر:
«فكل من أحب شيئًا دون الله ولّاه الله يوم القيامة ما تولاه».
فالمعنى هنا أخص من مجرد الألم النفسي: قد ينقلب المحبوب نفسه إلى سبب للعذاب الأخروي.

والتعلق بالمحبوب نوع من أنواع الاستعباد،
ففي شرح رسالة العبودية لابن تيمية، أنواع العبادة لغير الله جاء:

«فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى؛ فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن فعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه».

ووُصف أثر ذلك بأنه شقاء وهمّ وعناء؛ لأن إرادة القلب أصبحت أسيرة للمحبوب.

والعلاج المقابل: حلاوة محبة الله
قال ابن تيمية في علاج التعلق:

«ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله؛ فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب».

ثم قرر قاعدة تزاحم المحبتين:

«والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه؛ فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر».

فالعلاج ليس مجرد إخلاء القلب من المحبة، وإنما ملؤه بمحبة أعلى: محبة الله ورسوله، ثم ترتيب سائر المحاب تحتها.

وهنا عبارة قيمة جامعةٌ نافعة لابن كثير-رحمه الله- وفيها أثرٌ من نص معلمه ابن تيمية، ففي تفسيره عند تفسير عقوبة كانزي الأموال:
«(هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)... ولهذا يقال: من أحب شيئًا وقدّمه على طاعة الله عُذِّب به؛ -وهنا محل الشاهد- وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عُذِّبوا بها.

ثم عمّم المعنى على المال وغيره، وذكر أن أبا لهب لما كانت امرأته تعينه على عداوة الرسول ﷺ صارت عونًا على عذابه، وأن الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها صارت من أضر الأشياء عليهم في الآخرة».

تخيل أن يُعذب من يكنز المال في الدنيا فإذا مات لم يأخذ معه شيء منه، ولكنه يُعذب به في النار فتُحمىٰ تلك الكنوز في النار(فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)
هذا في المال وقس علىٰ كل المحبوبات في الدنيا والتي ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ في قوله(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ) إلى آخر الآية..

ومَحبَّةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أُصولِ الإيمانِ، وهي مَقرونةٌ بمَحبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَوعَّدَ اللهُ مَن قدَّم عليها شيئًا مِن الأمورِ المحبوبةِ في الطَّبْعِ؛ مِن الأقاربِ والأموالِ، والأوطانِ وغيرِ ذلك، فقال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)، يقول ابن كثير: وهنا أَمَرَ الله تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ آثَرَ أَهْلَهُ وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ أن يَنْتَظِرُوا مَاذَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِهِمْ.

ولا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما قال رسول الله ﷺ..

وفي حب رسول الله حتى يكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه.. فقد كان عمر رضي الله عنه يمشي مع النبي يوما فقال له: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلا نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكِ، قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الآنَ، وَاللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الآنَ يَا عُمَرُ)[رواه البخاري].

وقد ثبت في الصحيح عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ".
وهذا الحديثُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ؛ لأنَّ هذه الألْفاظَ اليَسيرةَ جمَعَتْ مَعانيَ كَثيرةً؛ لأنَّ أقسامَ المحبَّةِ ثلاثةٌ:
مَحبَّةُ إجلالٍ وعَظَمةٍ، كمَحبَّةِ الوالدِ،
ومَحبَّةُ شَفقةٍ ورَحمةٍ، كمَحبَّةِ الولَدِ،
ومَحبَّةُ استحسانٍ ومُشاكَلةٍ، كمَحبَّةِ سائرِ الناسِ، فحَصَرَ أصنافَ المحبَّةِ.
[الدرر السنية]

ومما ذكره ابن القيم في الوابل الصيب:
«وما أكثر ما يقدِّم العبد ما يحبّه هو ويهواه، أو يحبّه كبيره أو أميره أو شيخه أو أهله، على ما يحبّه الله تعالى... وسنّة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكِّد عليه محابّه، وينغِّصها عليه... جزاءً له على إيثاره هواه... على محبة الله تعالى.
وقد قضى الله سبحانه قضاءً لا يُردّ ولا يُدفع: أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سُلِّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد».

وهنا محل الشاهد في تأثر ابن القيم في معلمه ابن تيمية رحمهم الله أجمعين، وهنا تعجب ومن حضور أثر المعلم على تلاميذه، كما كان أثر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في صحابته والأمة من بعده على حسب الاتباع يكون الأثر النبوي في المُتبع.

فمعنىٰ الحب من المعاني المركزية في الشريعة، ومن المعاني التي كان لها في تراث ابن القيم-رحمه الله- الحظ الوافر، ففي زاد المعاد يقول:
«ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله، وتعلّق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، وسُجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا منه».

ثم قال:

«فهما محبتان:
١-**محبة هي جنة الدنيا**، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح... وهي محبة الله وحده بكل القلب.

٢-**محبة هي عذاب الروح**، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه».

وقال في الداء والدواء في باب عشق الصور:
«**أحدها**: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما صاحبه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه؛ فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ولا بد:
فما في الأرض أشقى من محبٍّ
وإن وَجَد الهوى حلوَ المذاقِ
تراه باكيًا في كل حين
مخافةَ فُرْقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم
ويبكي إن دنَوا حذرَ الفراقِ
فتسخَن عينُه عند الفراق
وتسخَن عينُه عند التلاقي».

ثم قال:

«والعشق، وإن استعذبه العاشق، فهو من أعظم عذاب القلب... فإن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه، يسومه الهوان».

وله في الداء والدواء أيضًا تفصيل أنواع هذا العذاب، يقول رحمه الله:

«وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب. فكل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذّب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه».

فالعذاب عنده يقع:
في طلب المحبوب والتشوّف إليه.
وفي الخوف عليه بعد حصوله.
وفي ألم فقده بعد زواله.

ومن النصوص النبوية الدالة على المعنى حديث:
«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة».

وشرح ابن تيمية معنى عبوديته للمال بقوله:
«وهذا حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط... وهكذا حال من كان متعلقًا منها برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه؛ إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده».

وبيّن أن المذموم ليس مجرد اقتناء المال أو الانتفاع بالمباحات، وإنما تعلّق القلب بها حتى تصده عن واجب، أو تحمله على محرم، أو يصير رضاه وسخطه تابعين لها.

فمدار نصوص الباب على قاعدة واحدة: ما استولى على القلب، وقُدِّم رضاه على رضا الله، انقلب على صاحبه عبوديةً وضيقًا وخوفًا وحسرةً، وقد يصير عينَ ما يعذَّب به في الآخرة.

فمن كان الله ورسوله أحبَّ إليه من كل شيء، وأحب المخلوق لله، كانت محبته حلاوةً وكمالًا.
ومن أحب المخلوق لغير الله، أو قدّمه على أمر الله، أو استعبد به قلبه، صار محبوبه سببًا لخوفه وحزنه وذله وحسرته، وربما صار عينَ عذابه في الآخرة.

كتبه:
زَيْنُ الْعَابِدِينَ الْخَوْلَانِيُّ
اليوم الثلاثاء:
14 محرم 1448 هـ
28 يوليو 2026 م